السيرة النبوية . . والدعاة (٥)

بقلم الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

التدرّج في تبليغ الناس أحكام الدين

وفي الدروس التي يجب أن يستفيد منها الدعاة إلى الله من السيرة النبوية، (التدرّج في تبليغ الناس أحكام الــدين)؛ اقتداءً منهم برسول الله – صلى الله عليه وسلم – في دعوته، وذلك واضح بيِّن في مراحل الــدعوة الــتي ســلكها، وأوصى بها أصحابه.

فمن ذلك ما رواه البخاري ومسلم أنه – صلى الله عليه وسلم –، عندما أرسل معاذ بن جبل رضي الله عنــه – إلى اليَمَنِ أوصاه وصيَّة رائعة.. فقد أَوْصَاه أن يبدأ دعوته بالتوحيد، ونَبْذ الشرك، فإذا استجاب الناس له وأطــاعوه، فليأمرهم بإقامة أركان الإسلام.

ويحسن بنا أن نورد نصَّ الحديث[١]؛ كما جاء في الصحيحَيْن:

عن ابن عباس عن معاذ بن جبل –رضي الله عنه – قال: بعثني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الــيمن فقال: ((إنّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنِّي رَسُولُ الله، فَإِنْ هُــمْ أَطَــاعُوا لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِــذَلِكَ؛ فَــأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِم أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حَجَابٌ))؛ رواه البخاري ١٣٩٥ وفي مواضع أخرى، ومسلم ١٩، والنسائي ٢/٥، وأبو داود برقم ١٥٨٤، والترمذي ٥، ٦، وابن ماجه ١٧٨٣.

إنّ هذا الحديث العظيم يدلُّ على وجوب اتّباع المراحل، التي ينبغي أن يسلكها الدعاة والقادة، وأولو الأمــر في دعوة الناس، وإقامة المجتمع الإسلامي، وأوّل هذه المراحل – كما جاء في الحديث – الدعوة إلى شهادة أن لا إلــه إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله، ثم البداءة بالأهم في الأهم.

إن البداءة بالأهم ثم المهم من التلطُّف في خطاب الناس ودعوتهم؛ لأنه لو طُولبوا بجميع أحكام الدين دفْعة واحدة في أول مرة، لم يأمن الداعي من النفرة.

إنّ مُرَاعاة الأولويات شيءٌ أساسي في نجاح الدعوات، وكثيرًا ما يغفل الدعاة عن هذا الأمر.

إنّ كلَّ كليّة وجزئية جاء بها الشرع المطهَّر، وأمر بها على وجه اللزوم واجبةُ التطبيق، والتهاون فيها يحمل معنى سيئًا، لا يليق بالمسلم أن يتصف به، وجهلها إن كانت مطلوبة على وجه الوجوب، نقص في المسلم لا يجوز أن يستمرَّ فيه. ولكنَّ هذا شيء؛ والتدرُّج في مُطَالَبَة الناس بالالتزام بالإسلام شيءٌ آخر.

والتدرّج في إبلاغ الناس مبادئ الدين، وسلوك المنهج المرحلي أمرٌ مطلوب، وهو الذي نقف عليه من أحداث السيرة المُطَهَّرَة؛ فلا يليق بالداعِيَة أن يطلب من كافر؛ أو مُلحِدٍ يُنْكِر وجود الله؛ أو مُشْرِك يُؤْمِن بالطَّاغُوت، أو مُتَشَكِّك في الدين؛ لا يليق أن يطلب من واحِدٍ منهم أداء واجب من الواجبات، التي لا تصحّ إلا بالإيمان. وهذا أمر قد يقع فيه بعض الدعاة الذين لم يدرسوا الوسط الذي يدعون الناس فيه.
إنّ من الواجب على الداعية أن يعلم – حقَّ العلم – طبيعة المُجْتَمَع الذي يُواجِهُه بالدَّعْوة، وأن يبدأ بالأساسيات، وعليه أن يتجنَّب المنفرات.

عن أنس – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: ((يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا وَلا تُنَفِّرُوا))؛ رواه البخاري ٦٩ ومسلم ١٧٣٤.

إن كثيرًا من الأمور التي يَصْعُب على الناس قبولها من دعوتنا، لو بدأنا بها لنفروا منَّا، وأعرضوا عنّا، ولكنّنا لو بدأنا بذكر محاسن طاعة الله ورسوله، وما أعدَّ الله لمن يؤمن به ويعمل الصالحات من الثواب؛ لاستجابوا لنا.

أَجَلْ سيستجيب لنا هَؤلاءِ الناس عندما تستقر الدعوة في قلوبهم، وتعظم خشية الله عندهم، وتعظم الرغبة في الجنة.. وعندئذ يصبح ما كانوا يكرهونه حبيبًا إلى نفوسهم. ومن الأمثلة على ذلك موقف الداعية في وسطٍ أَلِفَ السفور والحسور والتبرج، أو أَلِفَ الموسيقى والغناء.. لو بدأناهم بإنكار هذه المُحرَّمات، وهي تستحقّ الإنكار لأعرضوا عنا، وعن دعوتنا.. ولكنّنا لو أخرَّنا التعرُّض إليها؛ حتى نطْمَئِنَّ إلى أن إيمانهم أصبح قويًّا، وأن الخوف من الله يملك عليهم تصرفاتهم، لاستجابوا لنا في إنكارها، وانقادوا إلى الحق راضين طائعين.

عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصَّل، فيها ذكر الجنّة والنـــار، حتَّى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام. ولو أنزل أول شيء (لا تشربوا الخمر)، لقالوا: لا ندع الخمـــر أبدًا، ولو نزل (لا تزنوا) لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا"؛ رواه البخاري برقم ٤٩٩٣.

قال الأستاذ سيد قطب: "لقد جاء هذا القرآن؛ ليربي أمة؛ ويُنْشِئ مجتمعًا، ويقيم نظامًا. والتربية تحتاج إلى زمـــن، وإلى تأثير وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثُّر والانفعال إلى دافع، والنفس البشرية لا تتحوّل تحـــوُّلاً كـــاملاً شاملاً بين يوم وليلة، بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد، إنما تتأثَّر يومًا بعد يوم بطُرُقٍ من هذا المنهج، وَتَتَدَرَّجُ في مراقيه رويدًا رويدًا، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئًا فشيئًا، فلا تجفل كما تجفل لو قُدّم لها ضخمًا ثقيلاً عسيرًا، وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية، فتصبح بالتالي أكثر استعدادًا للانتفاع بالوجبة التالية، وأشدّ قابليـــة لهـــا والتـــذاذًا بها"[٢] والتدرج في التشريع وسيلة من وسائل رعاية المجتمع الإسلامي؛ مخافةً من الله؛ ورغبة في ثوابه، وحبًّا في التزام هَدْيِهِ.

كان تحريم الخمر على مراحل؛ كما هو معروف:

– نزل أولاً قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة: ٢١٩].

فلم تصرّح الآية بطلب الكف عنهما، ولكنّها اكتفت بذكر أن إثمهما أكبر من نفعهما، وفي ذلك تهيئـــة الـــنفس لقبول ما سيترل من الآيات بحقّهما.

– ثم نزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...} [النـــساء: ٤٣].

وفي هذه الآية نجد المنع من الصلاة حالة السُّكْر، ومعلومٌ أنَّ المسلم مكلَّف بالصلاة في أوقات متقاربة لا يـــذهب خلالها أثر السُّكْر؛ فكان ذَلِكَ سببًا في ترك شُرْب الخمر سحابة النهار، فكان الصحابة إذا صَلَّوُا العشاء سَكِر مَنْ أراد منهم السُّكْر، وفي ذلك تدريب على تركها مدّة طويلة من يقظة الإنسان.

ثُمَّ نزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ والأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ والمَيْسِرِ وَيَصُدّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَـــنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة: ٩٠–٩١].

فانتهى المسلمون عن شربها، وأهرقوا ما في دورهم منها[٣].

إنّ على الداعية إلى الله أن يفيد من السيرة النبوية في دعوة الناس، فذلك أدعى إلى نجاحه في مهمته.

والله ولي التوفيق.

---

[١] انظر شرحنا للحديث في كتابنا: "الحياة الاجتماعية في ضوء السنة".

[٢] في ظلال القرآن ٢٥٦٢/٥.

[٣] انظر كتابنا "لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير" ص ٦٠ وما بعدها